الحلقة الأولى

قبل أن ندرس طبيعة الامبريالية في مرحلة تصدير رأس المال ـ المالي وأنعكاسه على واقع المجتمعات المتخلفة (العالم الثالث) والوضع الاجماعي في لبنان ، لا بد من دراسة نظرية وتاريخية لنشوء الرأسمال وتكون الرأسمالية والقوانين التي تحكمها وتدفعها باتجاهات متناقضة مع نفسها ومع جوهرها ومع حركات التحرر الوطنية من جهة أخرى . وكيف أن طبيعة الرأسمالية في الأساس طبيعة احتكارية قائمة على الاستغلال والاستثمار الطبقيين وممتدة على القهر الاجتماعي الذي تشكل الملكية الخاصة وملحقاتها من العمل المأجور وبيع قوة عمل العامل ، القاعدة المادية ـ الموضوعية للنهب الامبريالي فيما بعد .

الرأسمال المصرفي والنهب الأمبريالي

بقلم: وليد عادل

الرأسمال والرأسمالية

ان آلية نشوء المجتمع الرأسمالي وانتقاله من احشاء المجتمع الاقطاعي الى مرحلة المزاحمة الحرة (البضاعة ـ التجارة) ثم الى مرحلة الاحتكار (المال ـ المصارف) التي تتوجت بالامبريالية (مرحلة تصدير رأس المال ـ المالي) قد بدأت هذه الآلية مسيرتها في الاساس من الانتاج البضاعي وتبادل ذلك الانتاج مع بضاعة أخرى(١) ، والبضاعة تساوي قيمة انتفاعية وايضا لها قيمة تبادلية . اذن البضاعة تتعمد على قيمتين : انتفاعية وتبادلية . والقيمة التبادلية تساوي القيمة الانتفاعية مقابل تبادل البضائع من نوع آخر ـ اي قيمة انتفاعية اخرى وبجمع القيم الانتفاعية المختلفة خيط مشترك هو انها من نتاج العمل . اذن القيمة الانتفاعية تساوي نتاج العمل الشخصي ، اما القيمة التبادلية (نظرية القيمة) تساوي نتاج العمل المجرد . البضاعة اذن تساوي كمية محددة من زمن العمل اللازم اجتماعيا ، والقيمة اذن تساوي كمية العمل وساعات العمل اللازم اجتماعيا لانتاج بضاعة معينة .

والقيمة هنا اشكال . واشكالها هي :

١ ـ البسيط وهو تبادل كمية محدودة من البضائع بمثلها .

٢ ـ العام وهو نوعان :

أ ـ بضاعي : تبادل كمية مختلفة من البضائع بكمية واحدة محدودة من البضائع .

ب ـ نقدي : تبادل بضاعة معينة مقابل المال .

٢ ـ بالتجديد الموسع (تكرار الانتاج في حجم اكبر ـ زيادة الانتاج) وهذا يعتمد على قاعدتين :

الاولى : تراكم رأس المال .

الثانية : تحويل القيمة الفائضة الى رأسمال .

كيف يتقدم الاقتصاد الرأسمالي ؟

ينطور المجتمع الرأسمالي بتمركز (وسائل الانتاج + رأس المال) وتمركز رأس المال يعني امتصاص المشروعات الكبرى للمشروعات الصغرى .

مما يتركب الرأسمال ؟

يتركب من :

١ ـ التراكم الرأسمالي يؤدي الى ارتفاع التركيب العضوي للرأسمال .

٢ ـ التركيب العضوي للرأسمال يساوي نسبة الرأسمال الثابت الى الرأسمال المتحول .

ومجموع الرأسمال يساوي الرأسمال الثابت مع الرأسمال المتحول الذي بدوره ينتج فائض القيمة . وثاني الان الى المزاحمة الحرة ، القاعدة الاقتصادية الاولى لتراكم الرأسمال) التي هي المزاحمة بين الرساميل للوصول الى المعدل الوسطي للربح . ومعدل الربح الوسطي هو القاعدة المادية التي تعتمد عليها الطبقة البورجوازية لاستغلال الطبقة البروليتارية لان استمرار الانتاج الرأسمالي (نمط الانتاج الرأسمالي) مرهون باستمرار وجود الثرطين الرئيسين لذلك الاستمرار وهما : العمال + تراكم الرأسمال . الا ان نمط الانتاج الرأسمالي هو في صيرورة متناقضة ، والتناقض هنا قائم بين قوى الانتاج (العمال + وسائل الانتاج) من جهة وعلاقات الانتاج (العلاقات الاجتماعية) من جهة اخرى .

ولذلك تعمل الرأسمالية دائما لايجاد اسواق لتصريف فائض انتاجها بشتى الطرق والوسائل وذلك لتخفيف حدة التناقض الداخلي الذي يمتد مع نمو الرأسمالية ويحصل ذلك بالطبع على حساب البروليتاريا في الدول الرأسمالية والشعوب المستعمرة والمستغلة . وتراكم الانتاج الرأسمالي وتطور وسائل انتاجها يدفعها الى « التقدم » بعدة اتجاهات استعمارية . اذ ان تحول الرأسمالية من مرحلة المزاحمة الحرة الى مرحلة الاحتكار ، دفع الرأسمالية للانتقال من مرحلة تصدير البضائع الى المستعمرات (التجارة الكولونيالية) الى مرحلة تصدير الرأسمال (الرأسمال ـ المالي) اي انتقال الرأسمالية من مرحلة الاستعمار الى مرحلة الامبريالية . وهذا ما شرحه لينين في كتابه « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » حيث ان ماركس لم يعش طويلا ليلحق هذه المرحلة التي شاهد فقط بدايتها وقبل ان تكتمل مراحل نموها .

يقول لينين حول هذه الناحية : « لنصف قرن مضى ، عندما كتب ماركس مؤلفه « الرأسمال » كانت المزاحمة الحرة تبدو « قانونا طبيعيا » في نظر الاكثرية الكبرى من الاقتصاديين . وقد حاول العلم الرسمي ان يقتل عن طريق مؤامرة الصمت مؤلف ماركس الذي برهن بتحليله النظري والتاريخي للرأسمالية على ان المزاحمة الحرة تولد تمركز الانتاج وعلى ان هذا التمركز يفضي ، عند درجة معينة من تطوره الى الاحتكار . وقد غدا الاحتكار الان امرا واقعا » (٢)

الامبريالية : اعلى مراحل الرأسمالية

كتب لينين مؤلفه « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » في مدينة زوريخ في ربيع العام ١٩١٦ ، حيث شرح فيه ان المزاحمة الحرة مؤداها تمركز الانتاج وهذا التمركز مؤداه في النهاية الاحتكار وتمركز الاحتكارات الرأسمالية مؤداها الامبريالية نعني تمركز الرساميل في شركات معرفية (بنوك) مع تصدير تلك الرساميل عبر المصارف الى الخارج ، الى البلدان المتخلفة . وهذا بالطبع يؤدي الى تناقض حاد ، التناقض ما بين البلدان الرأسمالية نفسها من جهة والتناقض ما بين البلدان الرأسمالية والبلدان المتخلفة من جهة ثانية وبالتالي دخول البلدان المتخلفة في سوق الاحتكارات الامبريالية وتحولها الى بلدان تابعة .

يقول لينين : « الوقائع تظهر ان التباين بين مختلف البلدان الرأسمالية من حيث الحماية او التجارة الحرة مثلا ، ولا ينشأ عنه الا تباين لا شأن له في شكل الاحتكارات او في زمن نشوئها ، في حين ان نشوء الاحتكارات عن تمركز الانتاج هو اطلاقا القانون العام والاساسي في المرحلة الحديثة من تطور الرأسمالية » (٣) وبعد بعد ذلك مراحل تاريخ الاحتكارات الاتية : ١) سنوات العقدين السابع والثامن من القرن الماضي هي ذروة تطور المزاحمة الحرة . لم تكن الاحتكارات الا حالات جنينية . وبعد ازمة سنة ١٨٧٣ بدأت مرحلة تطور الكارتيلات بصورة واسعة ، ولكنها ظلت مع ذلك حالات نادرة جدا . انها ما تزال ظاهرة عرضية . ٢) نهضة اواخر القرن التاسع عشر وازمة سنوات ١٩٠٠ ـ ١٩٠٣ ، اصبحت الكارتيلات اساسا من اسس الحياة الاقتصادية باكملها ، صارت الرأسمالية الى استعمار (امبريالية) (٤) .

المصارف : رأس حربة الامبريالية

وينتقل لينين بعد ذلك للكلم عن المصارف ووظيفة البنوك الاساسية في عملية النهب الامبريالي فيقول : « ان وظيفة البنوك الاساسية والاولى هي الوساطة في الدفع . واثناء ذلك تحول البنوك الرأسمال النقدي غير العامل الى رأسمال عامل ، اي الى رأسمال يدر الارباح ، وتجمع العائدات النقدية بشتى انواعها ونضعها تحت تصرف الرأسماليين » . وينابع لينين تحليله :

« وبمقدار ما تتطور عمليات البنوك وتتركز في مؤسسات قليلة العدد ، تتحول البنوك من وسطاء موافهين الى احتكارات شديدة الحول والطول تتصرف بمعظم الرأسمال النقدي العائد لمجموع الرأسماليين وصغار اصحاب الاعمال وكذلك بالقسم الاكبر من وسائل الانتاج ومصادر الخامات في بلاد معينة او في جملة من البلدان . وتحول الوسطاء الكثيرون المواضعون الى حفنة من الاحتكارات هو وجه اساسي من وجوه صيرورة الرأسمالية الى امبريالية رأسمالية ، ولذا ينبغي لنا ان نتناول في المقام الاول تمركز البنوك » (٥) . ويعرف لينين معنى تمركز البنوك فيقول : « تمركز الانتاج ، الاحتكارات الناشئة عن هذا التمركز ، اندماج او اقتران البنوك والصناعة ـ هذا هو تاريخ نشوء الرأسمال المالي وفحوى هذا المفهوم » (٦) .

اذن ، تمركز الانتاج الصناعي في اوروبا ، انتقلت بواسطة الرأسمالية من مرحلة المزاحمة الحرة الى مرحلة الاحتكار ، وتمركز الاحتكارات الرأسمالية واندماجها في مؤسسات مصرفية ـ مالية كان الخطوة الاولى للانتقال لمرحلة الامبريالية الرأسمالية .

ثم يتكلم لينين عن خواص الرأسمالية في مرحلتها القديمة والحديثة ، وعن خواص تلك المرحلين التي نوجت بسيطرة الرأسمال المالي على بقية اشكال الرساميل ، فيقول : « من خواص الرأسمالية بوجه عام فصل ملكية الرأسمال عن توظيف الرأسمال في الانتاج ، فصل الرأسمال النقدي عن الرأسمال الصناعي او المنتج ، فصل صاحب الدخل الذي يعيش فقط من عائد الرأسمال النقدي عن الصناعي وجميع المشتركين مباشرة في ادارة الرأسمال .

والامبريالية او سيطرة الرأسمال المالي هي مرحلة الرأسمالية العليا التي يبلغ فيها هذا الفصل مستوى عاليا . وهيمنة الرأسمال المالي على بقية اشكال الرأسمال تعني سيطرة الطفمة المالية ، تعني بروز عدد ضئيل من الدول تملك « الباس » المالي بين سائر الدول الاخرى » (٧) .

ويحدد لينين آلية سير الرأسمالية في مختلف مراحلها واشكالها فيقول : « كان تصدير البضائع الحالة النموذجية في الرأسمالية القديمة ، حيث كانت السيادة التامة للمزاحمة الحرة . وغدا تصدير الرأسمال الحالة النموذجية في الرأسمالية الحديثة » . ويتابع « الرأسمالية هي الانتاج البضاعي في مرحلة تطوره العليا التي نفذ فيها القوة العاملة بضاعة كذلك . واتساع التبادل في داخل البلاد ولا سيما في الميدان العالمي هو السمة الخاصة المميزة للرأسمالية . ان طابع التفاوت والتفاوت في تطور المشاريع والفروع الصناعية والبلدان هو امر محتوم في عهد الرأسمالية » (٨) . ثم يشرح كيفية تحول الرأسمالية الى امبريالية رأسمالية فيقول : « الرأسمالية لم تصبح امبريالية رأسمالية الا عندما بلغت في تطورها درجة معينة ، عالية جدا عندما اخذ يتحول الى نقيضة بعض من اخص خصائص الرأسمالية ، عندما تكونت وظهرت في جميع الاتجاهات سمات مرحلة انتقالية من الرأسمالية الى نظام اقتصادي اجتماعي اعلى . والامر الاساسي في هذا السير هو من الناحية الاقتصادية حلول الاحتكارات الرأسمالية محل المزاحمة الحرة الرأسمالية » (٩) .

وينتقل لينين للتكلم عن شراسة الرأسمالية في مرحلة الاحتكار (الامبريالية) حيث تحل الاحتكارات مكان المزاحمة الحرة دون ان تزيلها . وحيث تحل التناقض الحاد السابق في الرأسمالية القديمة لتخلق تناقضا حادا اكثر في مرحلة الرأسمالية الحديثة وحيث تصبح التناقضات وصراعها هي السمة البارزة في الاحتكارات الامبريالية (مرحلة تصدير الرأسمال المالي) فيقول : « في الوقت نفسه لا تزيد الاحتكارات المزاحمة الحرة التي نشأت عنها ، بل تعيش فوقها والى جانبها ، مولدة على هذا الشكل ، جملة من التناقضات والاحتكاكات والنزاعات في منتهى الشدة والقوة .

فالاحتكار هو انتقال من الرأسمالية الى نظام اعلى » (١٠) . ويتابع « ان الاحتكار هو اعمق اساس اقتصادي للامبريالية . وهو احتكار رأسمالي ، اي انه ناشىء عن الرأسمالية وقائم ضمن الظروف العامة للرأسمالية والانتاج البضاعي والمزاحمة ، ضمن تناقض مع هذه الظروف العامة دائم ولا مخرج منه » (١١) .

الامبريالية وشعوب الشرق

ويصل لينين الى النقطة الاساسية في شراسة الامبريالية ونزوعها ، قصر السيطرة التي تطلب نظما سياسية استبدادية تكبح تناقضات الشعوب المقهورة والثورية من جهة لتحافظ على تناقضات الامبريالية في نزعها الرجعية والاحتكارية من جهة اخرى. فيقول : « الامبريالية هي عهد الرأسمال المالي والاحتكارات التي تحمل في كل مكان النزعة الى السيطرة ، لا الى الحرية . ونتائج هذه النزعة هي الرجعة على طول الخط في ظل جميع النظم السياسية وتفاقم التناقضات لاقصى حد كذلك في هذا الحقل . يشد بوجه خاص كذلك الظلم القومي والميل الى الاعتداء على الاستقلال الوطني » (١٢) . ويتابع « ان الاحتكارات والطفمة المالية والنزوع الى السيطرة بدلا من النزوع الى الحرية واستثمار عدد مزايد من الامم الصغيرة او الضعيفة من قبل قبضة صغيرة من الامم الغنية او القوية ـ كل ذلك قد خلق السمات المميزة للامبريالية والتي تحمل على وصفها بانها الراسمالية الطفيلية » (١٣) .

وهنا بدأ لينين ينابع نشوء حركات التحرر الوطنية في البلدان المتخلفة ضد الامبريالية ، بوصفها حركات قومية تضعضية تضرب الامبريالية في اضعف حلقاتها في المستعمرات ، وبوصفها ايضا حركات تحررية ثورية ذات طابع وطني تشأ عقب تحول الرأسمالية من مرحلة الاستعمار الى مرحلة الامبريالية ، وبالتالي نشأت في اعقاب مرحلة تصدير الرأسمال المالي الذي ساهم في خلق القاعدة المادية ـ الموضوعية القيام حركات تحرر وطنية في بنى المجتمعات المتخلفة .

اذن قيام كل حركة تحرر وطني واي حركة وطنية ثورية في الشرق (العالم الثالث) جاء بناء على سيطرة الامبريالية على النشوب ونزوعها الرجعي نحو الاستبداد من جهة والحاق شعوب المستعمرات في سوق الاحتكارات الرأسمالية من جهة اخرى مما ولد قاعدة موضوعية لانطلاقة حركات التحرر الوطنية . ولقد جاء لينين للحركات الوطنية وضرورة دعمها ومساندتها للتحرر من السوق الامبريالية ، والاحتكارات الرأسمالية بناء على تحليله لعالمية الانتاج الرأسمالي وتمركز الاحتكار في حلقات قوية (اوروبا ـ امريكا الشمالية) وامتداد تلك الحلقات لفسح شعوب المستعمرات الى دوائرها ، التي شكلت فيما بعد تلك الدوائر ، الحلقات الاضعف في الرأسمالية الامبريالية . وبالتالي فان ضرب هذه الحلقات الضعيفة هو مقدمة ضرورية وموضوعية وتاريخية لضرب الحلقات الاقوى في السلسلة الامبريالية . وهنا يكمن بالضبط خلاف لينين مع روزا لوكسمبورغ التي اعتبرت بان لا اهمية لحركات التحرر الوطني في ظل عالمية الانتاج الرأسمالي وفي ظل « الامبريالية العالمة من عقالها » حيث تصبح بنظرها الثورة في الغرب ـ في المجتمعات الرأسمالية الاوروبية هي الاساس لشل تحرك الرأسمالية الامبريالية . بينما كان موقف الماركسي الهندي كول ، عكس رأي لينين ولوكسمبورغ ، اذ اعتبر بان الامبريالية قد وحدت شعوب الشرق بضمهم الى السوق الامبريالية وبالتالي فلا داعي لقيام حركات تحرر وطنية تفكك تلاحم الشرق الذي طوقته الامبريالية نفسها ، ولذلك قال بضرورة قيام الشرق الملحق بسوق الامبريالية بثورة واحدة وبدفعة واحدة ضد الغرب في مرحلة الاحتضار . ولقد برهن التاريخ فيما بعد صحة موضوعة لينين حول حركة تحرر شعوب الشرق الوطنية ، وسقوط تلك المقولتين اللتين لم تصمدا امام اشتداد ضربات حركات التحرر الوطنية في العالم الثالث .

وهنا يأتي دور ماوتسي تونغ بالتحديد ، اذ ان لينين تكلم عن الامبريالية كاعلى مراحل الرأسمالية الاحتكارية ، قدرس الامبريالية (مرحلة تصدير رأس المال المالي) وتمركز الاحتكارات الرأسمالية والحافها الشعوب الضعيفة والامم الصغيرة بالسوق الامبريالية العالمية . اما ماوتسي تونغ فلقد تكلم عن الامبريالية في الشرق ، درس الامبريالية من خلال امكانيتها على الصين ـ على البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة وعلى البلدان المتخلفة الاقطاعية ، وايضا درس الرأسمالية في مرحلتها الصناعية والمالية ، اي الجارية والمصرفية ، من ناحية تأثيراتها على شعوب الشرق والبصمات التي خلفتها على المجتمع الصيني والاثار الدامية التي تركتها على سطح المجتمع الصيني السياسة . وحدد ايضا كيفية مجابهة الامبريالية من خلال كفاح تحرري وطني طويل الامد خاصة هو نفسه تجربة جديدة في الساحة الصينية .

ويصف ماوتسي تونغ دور الرأسمالية الامبريالية في الصين فيقول : « ان الرأسمالية الاجنبية قد لعبت دورا هاما في انحلال الاقتصاد الاجتماعي في الصين الذي نشأ من جهة ، اسس اقتصادها الطبيعي القائم على الاكفاء الذاتي ودمرت الصناعات اليدوية في المدن والصناعات اليدوية المنزلية للفلاحين ومجلت من جهة اخرى في نمو الاقتصاد السلعي في مدن الصين واريافها » . ويتابع : « ولم تلعب هذه الاوضاع دورها في انحلال اسس اقتصاد الصين الاقطاعي فحسب ، بل وخلقت بعض الشروط الموضوعة لطور الانتاج الرأسمالي في الصين ايضا . ذلك ان دمار الاقتصاد الطبيعي قد اوجد للرأسمالية اسواقا لتصريف السلع ، في حين ان افلاس اعداد كبيرة من الفلاحين والحرفيين قد اوجد لها سوقا من الايدي العاملة » (١٤) . ويحدد هدف الامبريالية الاول والاخير بقوله : « ان الدول الامبريالية لم تكن تهدف من غزو الصين الى تحويلها من بلد اقطاعي الى بلد رأسمالي بل كانت تهدف ، على النقيض من ذلك تماما الى تحويلها الى شبه مستعمرة ومستعمرة تابعة لها » (١٥) ويردف قائلا : « ولهذا الغرض فقد استخدمت الدول الامبريالية ولا تزال تستخدم جميع وسائل الاضطهاد العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية وحولت الصين بصورة تدريجية الى شبه مستعمرة ومستعمرة » (١٦) .

وهكذا نرى بأن التناقض يحكم نشأة الرأسمالية من البداية حتى مرحلة احتضارها . فالرأسمالية خلقت نقيضها البروليتاريا والامبريالية خلقت ايضا نقيضها الحركة الوطنية التحررية .

وكنتيجة نظرية مكثفة يمكن تحديد تطور الرأسمالية منذ نشأتها حتى الان بالشكل التالي :

ـ انتاج البضائع .

ـ البضائع قيمة انتفاعية .

ـ البضائع قيمة تبادلية .

ـ تبادل البضائع مقابل بضائع مماثلة (سلعة ـ نقد ـ سلعة) .

ـ تبادل البضائع مقابل المال (نقد ـ سلعة ـ نقد) .

ـ المزاحمة الحرة بين الرساميل (الارباح ـ القيمة الفائضة) .

ـ تراكم الرأسمال (الاجور ـ فائض قيمة قوة العمل) .

ـ المعدل الوسطي للربح .

ـ ازدياد تراكم الرأسمال : الانتاج الفائض عن الحاجات .

ـ تمركز الانتاج في مرحلة المزاحمة الحرة .

ـ تصدير البضائع الى الاسواق الخارجية (الاستعمار) .

ـ الاحتكار وازدياد تراكم الرساميل .

ـ تمركز الاحتكارات .

ـ انتاج الرساميل ـ الرأسمال المالي .

ـ نشوء المصارف اعلى مرحلة لتجمع وتراكم الرأسمال .

ـ تصدير الرأسمال المالي (الامبريالية) ■■